نظراتهم الساخرة، وهو معفّر مغبرّ، التراب على رأسه محثوّ، يتساقط فوق محيّاه ولحيته، وما من امرئ واحد في قومه حاول ـ ولو بكلمة ـ أن يردّ عنه هذا العبث المرذول؟ أما لديهم وازعٌ من أنَفَة وتحرّج، أو رادعٌ من غيرة واستحياء؟ وعصرت اللوعة قلوب الفتيات، بكَيْنَ..نشجن فما لبكائهنّ حسيس، وكان القهر هو الذي يدرّ الدموع. ثم تقدّمن إليه ينفضن عنه التراب، والشؤون كالديم سواجم[637] تغسل الوجوه. أمّا هو فقد استمسك، فأشرقت على شفتيه بسمة عارضة كخطفة برق من وراء سحائب أساه، وراح يخفّف عنهنّ برحاء ما أحسَسْنَ من همٍّ موجع، فيمسح بيده عن وجناتهنّ قطر العبرات، وهو يقول بصوت مترفّق رقيق، لهذه فتلك فهاتيك: «لا تبكي يا بنّية، فإنّ الله مانع أباك»[638]. فكأنّي به لم يذكر عمّه أبا طالب كما ذكره في هذه الآونة، وفي مثيلاتها من آونات، وكأنّي به يقول: ما نالت قريش منّي شيئاً أكرهه حتّى مات أبو طالب. ويقول: يا عم! ما أسرع ما وجدتُ فَقدك! لكنّ الله ما قلاه، لسوف يمنعه وإن منعه لدان قريب. وعلى الرغم من أنّ الرسول ضاق من قريش بصلف الشقاق، ولُدد[639] الخصومة، واستدار عنها ميمّماً شطر أبناء القبائل الأُخر، الوافدين على مكة من هنا وهناك، فلقد أبى أُولئك «العِلية» الأوغاد من قومه، الموغلون تجبّراً واستكباراً في الفساد والعناد، إلاّ َ مطاردته بهجر القول وسوء الفعال أنّى اتّجه، وأيّان حاول الاتّجاه. فحمقهم حينذاك يشيع كالهباء في الهواء، فلا يعرف فاصلاً بين آن وآن، ولا